الدين والحياة

للأستاذ حامد محمود الزفرى

وقيام بروتوكول الاسكندرية ١٩٤٥م وإنشاء الجامعة العربية كان تجسيداً للشعور العربى وتعبيراً عن وحدة الهدف غير أن ارتباط الحكام بقيود الموقف السياسى والاجتماعى بالنسبة لذواتهم ومناصبهم ، واندفاعهم مغامرين بحقيقة الحرية وبيعها لقاء نيشان أو رتبة أو إرضاء لمستعمر أو إبقاء على حكم ، الواقع أن بعض الوطنيين أفسدت السياسة ضمائرهم واختلط الأمر عليهم ، ولكن التراب لا يستطيع أن يفنى التبر وإن كان يخفيه أحيانا .

فلم تكد إسرائيل تعلن عن وجودها عقب إنشاء الجامعة فى سنة ١٩٤٨ حتى هب الشعب العربى وثار وتحركت الجامعة وتكون الجيش العربى وكان ما كان من شد القيادة بحبال الخيانة كما أشرنا فى مقال سابق ومن هذه الجولة العملية التى خاضتها الشعوب وانكشف فيها تيار الحكام والساسة ، وانحسرت تمثيليات الاستعمار وروايات الساسة عن انتقال القيادة والتوجيه من أيديهم إلى الشعب ، ففى سوريا قامت انقلابات ، وفى القاهرة شبت الحرائق ، وفى العالم العربى كله بانت طلائع الزحف .

ثم إن اليأس الذى أصاب الشعوب العربية من أسلوب المفاوضات أو (المراوغات) بين الحكام والمستعمر تارة وفى المحافل الدولية تارة أخرى هذه الظاهرة هى الأخرى زادت الوضع اشتعالا وأسلمت هذه الظروف وغيرها القيادات فى أيدى الشعوب .

ولم تكد ثورة ٢٣ يوليو فى مصر تعلن تأميم شركة القناة حتى تنمر لها الاستعمار وتربص بها الدوائر ومكر ... وصمم الشعب ، وكانت الواقعة وكانت حرب السويس سنة ١٩٥٦ نقطة هامة فى دفع الشعور والازدياد بحاجتنا إلى التماسك وتجسدت هذه الحقيقة مرة ثانية لا فى بروتوكول على الطريقة الدبلوماسية ، ولكن فى قطع شرايين الاستعمار وغضبة السكان من الخليج إلى المحيط وكلما زاد الضغط من الاستعمار زاد

الشعور العملى بالتقارب والوحدة وزادت الجامعة العربية تثبيتاً وإحياء ومن هذه المعركة وعلى أثرها عريت الحقيقة عن الأغلفة الاصطناعية والأقنعة الزائفة وباتت القومية العربية تعبر عن وجودها كنقطة بدء للانطلاقة العمرانية الكبرى فى محيط العالم الإنسانى وساحة القيادة الأصلية ومسرح التوجيه .

وكان قيام الجمهورية العربية المتحدة مرحلة من أولى تجسيد هذه الحقيقة ونحن نعتقد أن القومية التى لم يأت دور بحثها بعد . لم تكن غاية وليست هى النهاية . وإنما هى نقطة بدء لتكوين جبهة إنسانية مثالية تقود البشرية وسط مدلهمات الظروف والأحداث . إلى أيديولوجية هامة فى حياة العمران البشرى . ومن الممكن أن يكون اليوم الذى يتحقق فيه ذلك يكون خير قطاع وجودى وأبرع مرحلة تاريخية إذ أن النزوع العلمى والنبوغ الفكرى للإنسان بحاجة إلى سمو القلب ومثالية السلوك حتى إذا تم التوازن بين العقل والقلب والابداع والرحمة . كان السلام وكانت السعادة وذلك ما ستعثر عليه عندما نتعرض لمقومات الأيديولوجية العربية الثائرة الصاعدة .

والقومية كعامل تجمعى لشعب بعثرته الظروف وكقوة دافعة نحو تحقيق الذاتية لجماعة ما . قد تقوم على مقومات سياسية أو جنسية ... الخ . تماما كالذى حصل فى القرن التاسع عشر فى أوربا كألمانيا وإيطاليا .

وقد أودت هذه النزعة القومية بحياة تلك الجماعات حيث التوغل فى رفع قيمة الجنس أو الشطط السياسى كالنازية والفاشية وهنا يمكن أن يتساءل البعض قائلا : أليس مصير هذه النزعات القومية المتشابهة الظروف والأسباب والغايات ، وأليس هذا الدور التجمعى متشابه الصورة والغاية ، وأليس من الخير لنا ألا يكون همنا ما نحن فيه .

وفى الحق أن دور القوميات فى أوربا نتجت عنه مشكلات ونتائج خطيرة فبانحراف القومية الألمانية والإيطالية وبسبب هذه الانحرافات قامت الحرب ، وأهلك الحرث والنسل . ولوى زمام الفكر نحو التخريب وأدوات الدمار .

وهنا يمكن أن نضع أيدينا على حقيقة هامة ونقطة فاصلة حاسمة بين القومية العربية والقوميات الأخرى والتى بسببها كنا فى حاجة الى دعاة فاهمين ورسل مخلصين وموجهين ورعين وقوميين مؤمنين لدفع العجلة وتطوير المفاهيم وتنوير الأذهان.

ذلك لأن القومية العربية لا تقوم على الجنس والظروف والآمال والآلام أو الوحدة الاقتصادية والظروف السياسية . الخ . ليس على هذا فقط . ولكن لأنها تقوم على نزعة إنسانية ودعوة عالمية . وهذا يوضح ارتباطها بالخلود والبقاء ، والنمو والتطور . والاعتدال وعدم الشطط . والتطلع إلى الأمن والسلام ، والحرية والرخاء وتاريخها مع البشرية منذ كانت كان كذلك ، فلقد وسعت وهضمت جميع العناصر التى قابلتها إبان إزدهارها من فارسية وهندية وإغريقية . والخ . ومزجت ذلك كله واستخلصت منه ما ينفع ونفخت فيه من روحها الإنسانية ومبادئها العالمية ، وإذا كانت خطة هذه القومية مرتبطة بأهداف إنسانية . وأغراض عمرانية وفلسفة كونية واتجاهات لا عصبية وتغذت جذورها بالمبادىء والقيم الخالدة فهى بطبيعتها تسع الاتجاهات السائدة للأمم والشعوب ما دامت تلتقى معها فى الأهداف والغايات . كالاتجاهات الآسيوية والأفريقية التى تجمتع وإياها فى وحدة المقصد الصاعد كالحرية والسلام ، هذا من الجانب السياسى العملى فى المؤتمرات والمحافل الدولية ، ومن الجانب النفسى والباطنى والغاية الجماعية التى يرتبط بها الأفراد وتجتمع الجماعة وينتظمها كالدين . فالقومية العربية كما أشرت هادفة إلى إشباع الدافع الاعتقادى وهى أيضاً بطبيعتها غير متعصبة لدين معين ، ففى فترة حياتها الأولى ونموها التاريخى كانت الأديان جميعاً تنعم فى ظلها بالأمن والمزاولة . لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم .

ومن هنا يمكن أن نلاحظ مدى ما صادفته من نجاح فى المجالات الأفريقية والآسيوية ومنه على سبيل المثال مؤتمر الدار البيضاء الذى تطور بسرعة وقوة خارقة وتحول من مشاورات ووجهات نظر إلى بروتوكول هام وتحول خطير واتجاه قوى وتحضير دسم لتغذية القومية الأفريقية ، ثم إن سعة صدر قوميتنا وفكرة الحياد الإيجابى وبعث هذه الكتلة المثالية لإحداث التوازن بين المعسكرين المتسابقين وكفهما عن الأغراض الحربية العدوانية وجـــذب النتائج الفكرية والاتجاهات العلمية والاختراعية والنهوض العقلى إلى حوزة السلام والعمل من أجل رفاهية البشر ، من هذا العرض الموجز السريع الذى نلمح فيه إصالة القومية وعدم عنصريتها وعالمية غايتها وأنها إنسانية ولم تكن عربية إلا لأن العرب هم الذين حملوا مشاعلها وبثوا مبادئها وقادوها ووجهوا الإنسانية ونحوها ؟

يتبع